

﴿كَيْفَ خُلِقْتُ﴾..

سؤال رباني يفتح أبواب العلم والمعرفة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقْتُ﴾

صح عن قتادة أنه قال:

«لما نعت الله ما في الجنة عجب من ذلك أهل الضلالة فأنزل الله: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقْتُ﴾ فكانت الإبل من عيش العرب ومن خولهم».

وصح عن شريح القاضي رحمه الله أنه كان يقول لأصحابه:

«اخرُجُوا بِنَا نَنْظُرْ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقْتُ».

وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال:
«تَفَكَّرُوا فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي ذَاتِ اللَّهِ».

وهذه الآثار الصحيحة تبين أن قوله تعالى: ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ليس دعوة إلى نظر عابر، بل إلى نظر تأمل وتفكر واعتبار؛ ولذلك كان التابعي شريح رحمه الله يخرج بأصحابه ليتحققوا هذا المعنى بالنظر في خلق الإبل.

وتأمل:

لم يقل سبحانه:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ﴾

وإنما قال:

﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾

وهنا موضع تدبر:

«كيف» سؤال عن حقيقة الخِلقَة وتفصيل التكوين ودقائق الإحكام؛ فهي تنقل النظر من مجرد وجود المخلوق إلى كيفية خِلقته، ومن رؤية صورته إلى تأمل خصائصه وأسرار تركيبه:

أن تنظر كيف جاءت صورته على هذه الهيئة، وكيف رُكبت أعضاؤه، وكيف اختلفت أشكالها وبُناها، وكيف أُعطي كل عضو من الصفات والقدرات ما يؤدي به وظيفته، وكيف تناسبت هذه الأعضاء بعضها مع بعض، وكيف وافقت خِلقَة البعير غذاءه وبيئته ومعيشته، وما وراء ذلك من دقائق في الخلق لا تظهر إلا بمزيد من النظر والتأمل.

فليس النظر أن ترى عيئًا ولسانًا وخُفًّا وسنامًا فحسب، بل أن تسأل في كل واحد منها:

كيف جاء على هذه الهيئة؟ وما في تركيبه مما يجعله يؤدي هذه الوظيفة؟ وكيف تعمل أجزاؤه مجتمعة على هذا الإحكام؟

وهذا هو العمق في قوله تعالى:

﴿كَيْفَ خَلَقَتْ﴾

نظُر في الهيئة والتركيب والوظيفة والتناسب والإحكام؛ حتى ينتقل الناظر من مشاهدة الخلق إلى الاعتبار بما في كيفية خَلقه.

♦ قال الإمام الطبري في بيان الآية:

«أفلا ينظرون إلى الإبل فيعتبرون بها».

♦ وقال الإمام ابن كثير:

«فإنها خلق عجيب وتركيبها غريب».

♦ وقال العلامة السعدي:

«ينظرون إلى خلقها البديع».

ولنأخذ من البعير عضوًا واحدًا فقط، فننظر في كيفية خلقه تحقيقًا لمعنى قوله تعالى:

﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾

لسان البعير

كيف خُلِقَ بهذه الهيئة؟ وكيف هُيئَ لما يأكله ويعيش عليه؟

ثم يزداد العجب حين ننظر إلى العضو نفسه في مخلوقات أخرى:
الاسم واحد.. والموضع واحد.. ولكن الخِلقة تختلف، والبنية تختلف، والوظيفة
تختلف؛ وكل لسان قد هُيئ بما يلائم حياة صاحبه وغذائه وحاجته.
عشرة ألسن.. والخالق هو الواحد الأحد

● البعير: يتميز لسانه بمرونة امتداد عالية تمكنه من الرعي وانتزاع أغصان
النباتات الصحراوية، مع إفراز لعابي غزير يلين الأغذية الجافة والحادة قبل البلع.
وهو لسان عضلي مخروطي الشكل، يجمع بين الصلابة والمرونة الكبيرة لتسهيل
تقليب الطعام وتوجيهه نحو الأضراس. وتنتشر على سطحه حلقات خيطية
ومخروطية متقرنة وموجهة إلى الخلف، فتساعد على توجيه الأشواك موازية للسان
والبلعوم، مما يقلل خطر انغراسها أثناء البلع. كما توجد فيه حلقات تذوق، فيجمع
بين تحمل الغذاء الخشن والإحساس بطعمه.

● الإنسان: لسان بالغ المرونة ينطق بالكلام ويعين على التذوق والمضغ والبلع.

● الزرافة: لسان قابض يبلغ نحو 46 سم يلتف حول الأغصان ويلتقط الأوراق بين الأشواك.

● كاسر البندق: في طرف لسانه نتوءان متقرنان يساعدانه على تقشير البذور واستخراج لبها.

● القط: حليمت دقيقة تجعل لسانه كالملشط، يحمل بها اللعاب إلى أعماق الفراء وينظفه.

● الحرباء: تحتزن في لسانها طاقة ثم تطلقه بسرعة خاطفة لاصطياد فريستها.

● الطائر الطنان: لسان دقيق مهيأ لجمع الرحيق من أعماق الأزهار.

● نقار الخشب: يمد لسانه داخل الشقوق والثقوب ليخرج الحشرات المختبئة.

● الببغاء: لسان حساس يعمل مع المنقار في الإمساك بالطعام وتقليبه.

● البطريق: حليمت صلبة على لسانه تمسك السمكة الزلقة وتمنعها من الإفلات.

إِتقان لا تراه العين

والعجيب أنها كلها ألسنة.. اسم واحد وعضو في الفم، ثم لكل مخلوق لسان يختلف في خِلقته وطوله وبنيته ووظيفته، حتى كأنك تنظر إلى أعضاء شتى لا إلى عضو واحد.

فكلما تطورت أدوات الإنسان في النظر والبحث، انكشف له من دقائق الخلق وإحكامه ما كان خافيًا عنه.

فالعين ترى،

والمجهر يكشف ما دقّ،

والتصوير يُظهر ما خفي،

والتشريح يكشف دقائق التركيب،

والتجربة تبين كيف تعمل الأشياء،

والتحليل يقارن وقيس،

ثم يأتي العقل فيجمع ويستنبط ويكتشف.

وهكذا تتراكم المعرفة جيلاً بعد جيل، ويتسع للإنسان العلم بخلق الله وسننه؛
والمسلم كلما ازداد علماً بدقائق هذا الخلق وإحكامه ازداد عبوديةً لله وتوحيداً له،
وتتقدم بهذه المعرفة العلوم، ويتطور الطب، وتُبنى الصناعات، وتُبتكر التقنيات،
وتتسع قدرات الإنسان وإمكاناته، وتزداد الأمة علماً وقوةً وعمراً.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾
وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قام من الليل «فقعد فنظر إلى
السماء» وقرأ هذه الآية.

فما أعجب دقة الخلق حتى في لسان بعير، وما أعظم حكمة الخالق تعالى فيما دقَّ
وجلَّ من هذا الكون.

كتبه :

الشيخ محمد عثمان العنجري

الثلاثاء 12 ربيع الأول 1448 هـ

الموافق 25 أغسطس 2026